مجلة معهد الإمام الشاطبي

مظاهر العُنصرية عند أهل الكتاب وكيف أبطلها القرآن الكريم

د. حمدان بن لافي بن جابر العنزي

الأستاذ المساعد بقسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية والآداب - جامعة الحدود

- من مواليد عام ١٤٠١هـ بمدينة عرعر بالمملكة العربية السعودية.
- تخرج في كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٤٢٣هـ.
- نال شهادة الماجستير في التفسير والحديث من قسم الثقافة الإسلامية بجامعة الملك سعود بأطروحته: "الأسماء المتشابهة في الآية الواحدة في القرآن الكريم بين التأسيس والتأكيد: دراسة نظرية تطبيقية" (مطبوعة)، كما نال شهادة الدكتوراه من جامعة أم القرى بأطروحته: "علوم القرآن عند الواحدي وأثرها في التفسير".
- من أعماله المنشورة: "رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم".
- البريد الشبكي: hh9869@gmail.com

الملخص

يهدف هذا البحث إلى التعرف على مظاهر العنصرية عند أهل الكتاب التي ذكرها الله عنهم في القرآن الكريم، وطريقة القرآن الكريم وأسلوبه في إبطال ونقض تلك المظاهر.

واشتمل على: تعريف العنصرية في اللغة والاصطلاح، والمراد بأهل الكتاب، ونشأة العنصرية وأول قائل بها كما بَيَّنَ ذلك القرآن الكريم.

كما اشتمل على ذكر مظاهر العنصرية عند أهل الكتاب التي ذكرها الله عنهم في القرآن الكريم وهي: زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، وتضليل بعضهم بعضًا، وزعمهم قصر الهدى عليهم، وتزكيتهم أنفسهم، وزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وزعم اليهود أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، وأن لهم الدار الآخرة خالصة من دون الناس، وأنهم أولياء الله، وقولهم ليس علينا في الأميين سبيل.

كما اشتمل على ذكر طريقة القرآن الكريم وأسلوبه في نقض العنصرية وإبطالها عند أهل الكتاب؛ وذلك من خلال الأدوات التي استخدمها كحرف (بلى) الذي يذكر في الجواب لإثبات نفي سابق، وحرف (بل) الذي يؤتى به في صدر الكلام لينفي ما تضمنته الجملة السابقة، وكذلك من خلال القاعدة التي قررها القرآن الكريم كمناط للكرامة في الدنيا، ودخول الجنة في الآخرة وهي تقوى الله والعمل الصالح.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، العنصرية، أهل الكتاب.

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإنه يمكن من خلال التفسير الموضوعي الكشف عن موضوعات عرض لها القرآن الكريم قد يُظن أنه خلو منها، ولكن بعد تدبر آيات القرآن الكريم، وجمع الآيات إلى مثيلاتها في الدلالة؛ تظهر ملامح موضوع قرآني كان مستورًا في ثنايا التفسير التحليلي .

ومن تلكم الموضوعات موضوع العنصرية، الذي لا يبدو ظاهرًا في القرآن الكريم، ولكن المتأمل في دلالات الآيات سوف تقع عينه على مجموعة منها، تَصْلحُ أن يعالج هذا الموضوع في ضوء دلالاتها وهدايتها[(١)] .

لذا رأيتُ الكتابة في هذا الموضوع مقتصرًا على الآيات الواردة في أهل الكتاب في هذا البحث المختصر الذي جعلت عنوانه: «**مظاهر العُنصرية عند أهل الكتاب وكيف أبطلها القرآن الكريم**».

فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله بريئان.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

١- التعرف على مظاهر العنصرية عند أهل الكتاب التي ذكرها الله عنهم في القرآن الكريم.

---

(١) ينظر: التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل (ص١٠٧، ١٠٨)، والمعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم (ص٧٩٤).

٢- التعرف على طريقة القرآن الكريم وأسلوبه في إبطال ونقض تلك المظاهر.

أسئلة البحث:

١- ما مظاهر العنصرية عند أهل الكتاب التي ذكرها الله عنهم في القرآن الكريم؟

٢- ما طريقة القرآن الكريم وأسلوبه في إبطال ونقض تلك المظاهر؟

منهج البحث:

اتبعت في هذا البحث المنهج الاستقرائي الاستنباطي.

خطة البحث:

قسمت البحث إلى: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وفهارس علمية، على النحو الآتي:

المقدمة: وتتضمن أهمية البحث وسبب اختياره، وأهداف البحث، وأسئلة البحث، ومنهج البحث، وخطة البحث، وإجراءات البحث.

التمهيد: ويشتمل على الآتي:

أولًا: تعريف العنصرية في اللغة والاصطلاح.

ثانيًا: المراد بأهل الكتاب.

ثالثًا: نشأة العنصرية وأول قائل بها كما بَيَّنَ ذلك القرآن الكريم.

المبحث الأول: مظاهر العنصرية عند أهل الكتاب في القرآن الكريم:

وفيه المطالب الآتية:

المطلب الأول: زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى.

المطلب الثاني: تضليل بعضهم بعضًا.

المطلب الثالث: زعمهم قصر الهدى عليهم.

المطلب الرابع: تزكيتهم أنفسهم.

المطلب الخامس: زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه.

المطلب السادس: زعم اليهود أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة.

المطلب السابع: زعم اليهود أن لهم الدار الآخرة خالصة من دون الناس، وأنهم أولياء الله.

المطلب الثامن: قول اليهود ليس علينا في الأميين سبيل.

المبحث الثاني: إبطال القرآن الكريم لمظاهر العنصرية عند أهل الكتاب:

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الأساليب والأدوات التي ذكرها القرآن الكريم لإبطال العنصرية.

المطلب الثاني: القاعدة التي قررها القرآن الكريم كمناط للكرامة في الدنيا، ودخول الجنة في الآخرة.

الخاتمة: وفيها أبرز النتائج.

الفهارس: فهرس المصادر والمراجع، فهرس الموضوعات.

إجراءات البحث:

ويمكن تلخيص إجراءات البحث بالآتي:

١- جمع الآيات التي تتعلق بموضوع العنصرية عند أهل الكتاب وتوزيعها على مباحث البحث ومطالبه حسب خطة البحث.

٢- تفسير الآيات تفسيرًا موضوعيًّا، مستخرجًا هداية القرآن الكريم منها.

٣- عزو الآيات وترقيمها؛ بذكر اسم السورة مع رقم الآية ووضعها بين قوسين وذلك بعد نهاية الآية المنقولة، كما التزمت رسم المصحف العثماني معتمدًا في نسخ نص الآية من مصحف المدينة في جميع الآيات الواردة في ثنايا البحث، إلا عند إيراد بعض القراءات الأخرى.

٤- توثيق القراءات، وذكر من قرأ بها، وعزوها إلى المصادر المعتمدة في هذا الفن.

٥- تخريج الأحاديث الواردة في البحث، ونقل أقوال العلماء في الحكم عليها تصحيحًا أو تضعيفًا؛ إذا كان الحديث في غير الصحيحين.

٦- إيضاح الكلمات الغريبة، وذلك بالرجوع إلى المصادر المعتمدة.

٧- عدم الترجمة للأعلام الواردين في ثنايا البحث؛ إذ ليس هذا مقصود البحث.

٨- توثيق الأبيات الشعرية من دواوين قائليها إن وجدت، وإلا من كتب التفاسير والمعاجم، مع عزوها لقائليها.

٩- تزويد البحث بالفهارس الآتية: فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

التمهيد

أولاً: تعريف العنصرية في اللغة والاصطلاح:

أ – تعريف العنصرية في اللغة: مصطلح العُنصرية -بضم الصاد- من المصطلحات العربية الحديثة؛ حيث لم يرد بهذه الصيغة في أي معجم من المعاجم اللغوية القديمة، وإنما الذي ورد هو ما ينتسب إليه هذا المصطلح، وهو كلمة (العنصر)[(١)] بفتح الصاد وهو الأفصح، وبضمها وهو الأشهر[(٢)].

وقد وردت كلمة العنصر في معاجم اللغة بمعانٍ مختلفة[(٣)]، والذي يعنينا هنا هو ما يتفق والمعنى الاصطلاحي للكلمة .

فالعنصر -بضم الصاد وفتحها-: الأصل، وما في معناه من الجنس، والحسب، والنسب.

قال ابن منظور رَحِمَهُ اللَّهُ : «العُنْصُر والعُنْصَر الأَصل، قال:

تَمَهْجَرُوا وأَيُّما تَمَهْجُرِ وهم بنو العَبْد اللئيمِ العُنْصرِ

ويقال: هو لَئِيم العُنْصُر والعُنْصَر، أَي: الأَصل»[(٤)].

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي حديث الإسراء «**هذا النيل والفرات عنصرهما**»[(٥)]، العنصر – بضم العين وفتح الصاد –: الأصل»[(٦)].

---

(١) ينظر: محيط المحيط(ص٦٣٧)، والرائد (ص١٠٥٥).

(٢) ينظر: لسان العرب، مادة عنصر (٤/ ٦١١)، والمصباح المنير(٢/ ٤١٣).

(٣) من معاني كلمة العنصر: الداهية، والهمة، والحاجة. ينظر: لسان العرب، مادة عنصر (٤/ ٦١١)، والقاموس المحيط، مادة عنصر (١/ ٥٣٧).

(٤) ينظر: لسان العرب، مادة عنصر (٤/ ٦١١).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، (٦/ ٢٧٣٠).

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة عنصر (٣/ ٥٨٧).

وقال الخليل رَحِمَهُ اللَّهُ: «العُنْصُرُ: أَصْلُ الحَسَب»[١].

وقال الفيومي رَحِمَهُ اللَّهُ: «العُنْصُرُ: الأصل و النسب»[٢].

وجاء في المعجم الوسيط: «العُنْصُرُ: الأصل والحسب، يقال: فلان كريم العنصر والجنس، ويقال فلان من العنصر الآري أو السامي»[٣].

ب – تعريف العنصرية في الاصطلاح:

سبق في التعريف اللغوي أن العنصرية من المصطلحات الحديثة، وقد ذُكر في تعريفها عدة تعريفات، منها:

١- جاء في المعجم الوسيط ما نصه: «العُنصرية: تعصب المرء أو الجماعة للجنس (مُحدثة)»[٤].

٢- وجاء في معجم الرائد ما نصه: «العُنصرية: مذهب المتعصبين لعنصرهم، أو لمذهب التمييز العنصري»[٥].

٣- وعرَّفها أحد الباحثين بقوله: «اتخاذ عناصر ناشئة من تصور بشري أساسًا للتفاضل بين الجماعات البشرية، ولا دخل لأحدٍ في هذه العناصر مثل: الجنس أو اللون أو القومية أو غير ذلك من هذه العناصر»[٦].

ثانيًا: المراد بأهل الكتاب:

اسم أهل الكتاب لقب في القرآن لليهود والنصارى الذين لم يتدينوا بالإسلام؛ لأن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل إذا أضيف إليه أهل، فلا يطلق على المسلمين: أهل الكتاب، وإن كان لهم كتاب، فمن صار مسلمًا من اليهود والنصارى لا

(١) العين، مادة عنصر (٢/ ٢٣٧).
(٢) المصباح المنير، مادة عنصر (٢/ ٤١٣).
(٣) المعجم الوسيط، مادة العنصر (ص٦٣١).
(٤) المعجم الوسيط، مادة العنصر (ص٦٣١).
(٥) الرائد (٥٦٧).
(٦) العنصرية عند الأمم وموقف الإسلام منها (ص٢١).

يوصف بأنه من أهل الكتاب في اصطلاح القرآن، ولذلك لما وصف عبد الله بن سلام في القرآن وصف بقوله: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد:٤٣] وقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ [الأحقاف: ١٠]، فلما كان المتحدث عنهم آنفًا صاروا مؤمنين بمحمد ﷺ فقد انسلخ عنهم وصف أهل الكتاب، فبقي الوصف بذلك خاصًّا باليهود والنصارى(١).

وقد ورد مصطلح أهل الكتاب في القرآن الكريم بألفاظ متعددة مثل: أهل الكتاب، والذين آتينهم الكتاب، والذين أوتوا الكتاب، والذين أوتوا نصيبًا من الكتاب(٢).

وقد ألمح ابن القيم إلى دلالة هذه الألفاظ من خلال استعمال القرآن الكريم لها فقال رَحِمَهُ اللَّهُ : « فالأقسام أربعة:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وهذا لا يذكره سبحانه إلا في معرض المدح.

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ لا يكون قط إلا في معرض الذم .

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أعم منه، فإنه قد يتناولهما ولكن لا يفرد به الممدوحون قط.

و﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعم الجنس كله، ويتناول الممدوح منه والمذموم كقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وقال في الذم: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ [البينة: ١]»(٣).

ثالثًا: نشأة العنصرية وأول قائل بها كما بَيَّنَ ذلك القرآن الكريم:

عرض القرآن الكريم لنشأة العنصرية من خلال قصة آدم عليه السلام مع إبليس لعنه الله، والتي تكررت في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وهي أن الله سبحانه وتعالى

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ٤٢٩، ٤٣٠).

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم(ص٥٩٢).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٥١، ٣٥٢).

أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام بأنه سيخلق بشرًا من طين، وتقدم إليهم الأمر متى تَمَّ خلقه وتسويته فليسجدوا له، إكرامًا وإعظامًا واحترامًا وامتثالًا لأمر الله ﷻ، فامتثل الملائكة كلهم سوى إبليس -ولم يكن منهم جنسًا بل كان من الجن-، فاستنكف عن السجود لآدم وخاصم ربه ﷻ وادعى أنه خير من آدم ؛ لأنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين، والنار خير من الطين في زعمه، وخالف أمر ربه وكفر بذلك، فأبعده الله ﷻ وأرغم أنفه وأنزله من السماء مذمومًا مدحورًا إلى الأرض.

لقد رفض إبليس السجود لآدم حسدًا لآدم، واحتقارًا له؛ لأنه اعتقد أنه خير منه حيث قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]، أي: أفضل منه في الأصل وفي العنصر حسب اعتقاده؛ إذًا فإبليس لعنه الله أول العنصريين، وأول من أوجد العنصرية، عنصرية التفاضل، وعنصرية الجنس؛ حيث أراد أن يميز ويفضل نفسه على آدم عليه السلام (١).

قال الشنقيطي رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]: «خير تستعمل استعمالين (٢):

تستعمل اسمًا للخير الذي هو ضده الشر، وكثيرًا ما تستعمل في المال كقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] : أي مالًا.

وتستعمل صيغة تفضيل، وهو المراد هنا: فقوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ أصله: أنا أَخْيَر منه؛ أي أكثر خيرًا منه لفضل عنصري على عنصره.

قال إبليس اللعين: أنا خير من آدم والذي هو الفاضل والذي هو أكثر فضلًا وخيرًا لا ينبغي أن يُهْضَم ويؤمر بالسجود لمن هو دونه، فهذا التكليف ليس واقعًا موقعه، ولذا لا أمتثله!! فتكبر وتجبّر، وجعل تكليف ربه له واقعًا غير موقعه -عليه

(١) ينظر: الإسلام والعنصرية (ص٢٠، ٢١).

(٢) ينظر: المفردات، مادة خير(ص ٣٠١).

لعائن الله- فباء بالخيبة والخسران -نعوذ بالله ﷻ- قال إبليس: أنا خير من آدم، ثم بيّن سبب الخيريّة فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾يعني: أن عنصري أشرف من عنصره؛ لأن النار - في زعمه- أشرف من الطين؛ لأن النار مضيئة نيرة، طبيعتها الارتفاع، خفيفة غير كثيفة، وأن الطين منسفل كثيف مظلم ليس بمرتفع!! هذا قوله في زعمه. وزعم أن الفرع تابع لعنصره في الفضل، فقاس نفسه على عنصره الذي هو النار، وقاس آدم على عنصره الذي هو الطين، واستنتج من ذلك أنه خير من آدم لأن عنصره في زعمه خير من عنصره، (ورتَّبَ على ذلك معصية الأمر) الذي هو: اسجدوا لآدم -على إبليس لعنة الله-، وأول من قاس قياسًا فاسدًا وردّ به نصوص الله وأوامره ونواهيه هو إبليس اللعين -عليه لعائن الله-، فكل من ردّ نصوص الشرع الواضحة بالقياسات الباطلة عنادًا وتكبرًا فإمامه إبليس، لأنه أول من ردّ النصوص الصريحة بالمقاييس الكاذبة -عليه لعنة الله-»[(١)].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «وقول إبليس لعنه الله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله: وأنا خير منه، فكيف تأمرني بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه، وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياسًا فاسدًا في مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢] فشذَّ من بين الملائكة بتَرْك السجود؛ فلهذا أبلس من الرحمة، أي: أيس من الرحمة، فأخطأ قَبَّحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضًا، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة

(١) العذب النمير (٣/ ١٢٠، ١٢١).

والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة؛ ولهذا خان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة»[(١)].

فكان ما ادعاه إبليس -عليه لعنة الله- من أفضلية عنصره على عنصر آدم عليه السلام أول أشكال العنصرية التي عرفتها البشرية، ثم انفتح الباب على أشكال أخرى من العنصرية عنصرية: الجنس، واللون، والشعب المختار[(٢)].

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٩٢). وأطنب ابن القيم رحمه الله في ذكر الفرق بين الطين والنار حيث أوصل الفروق إلى خمسة عشر فرقًا . ينظر: بدائع الفوائد (٤/ ٩٤٩- ٩٥٢).

(٢) ينظر: العقيدة والفطرة (ص ١٠٦، ١٠٧).

المبحث الأول

مظاهر العنصرية عند أهل الكتاب في القرآن الكريم

عرض القرآن لكريم لعدد من مظاهر العنصرية عند أهل الكتاب في أكثر من سورة؛ لنقف على ما عند القوم من حقد على الإسلام وأهله، وسأتناول دراسة هذه المظاهر من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى:

من المزاعم التي ذكرها القرآن الكريم عن أهل الكتاب زعمهم أن الجنة وقف عليهم، فاليهودي يدعي أن الجنة لن يدخلها إلا من كان يهوديًّا، والنصراني يدعي أن الجنة لن يدخلها إلا من كان نصرانيًّا.

وقد ذكر الله تلك الدعوة الباطلة التي صدرت عنهم، ثم أتبعها بما يخرس ألسنتهم، ويدحض مدَّعاهم فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢] (١).

لقد اغتر الفريقان بما هم عليه وظهر حقدهما تجاه الإسلام وأهله، فكانت هذه المقولة من جملة أمانيهم الباطلة(٢).

ولما كانت هذه المقولة قد اشترك فيها الفريقان، مع علمنا بأن كل واحد من الفريقين يكفر الآخر(١)، ويضلل بعضهم بعضًا، ويعادي بعضهم بعضًا، كما هي

(١) ينظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص٥٦٨، ٥٦٩)، والشخصية اليهودية من خلال القرآن (ص١٣٧، ١٣٨).

(٢) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم (١/ ١٢٣، ١٢٤).

عقيدة الفريقين إلى اليوم[٢]، إلا أن الآية الكريمة سلكت في طريق الإخبار عما زعموه مسلك الإيجاز، فحكت القولين في جملة واحدة، وعطفت أحد الفريقين على الآخر بحرف (أو) ثقة بفهم السامع، وأمنًا من اللبس[٣].

فالضمير في قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ لأهل الكتاب كلهم من اليهود والنصارى بقرينة قوله بعده: ﴿إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ ومقول القول مختلف باختلاف القائل، فاليهود قالت: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، والنصارى قالت لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، جمع القرآن بين قوليهما[٤]، فاختصر الكلام أبلغ اختصار وأوجزه مع أمن اللبس ووضوح المعنى[٥].

ولـمَّا كان هذا الكلام مع وضوحه قد يحدث استشكالًا لدى القارئ لماذا جمع الله بين الفريقين؟

أجاب عنه الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «فإن قال قائل: وكيف جمع اليهود والنصارى في هذا الخبر مع اختلاف مقالة الفريقين؛ واليهود تدفع النصارى عن أن يكون لها في ثواب الله نصيب، والنصارى تدفع اليهود عن مثل ذلك؟

قيل: إن معنى ذلك بخلاف الذي ذهبت إليه. وإنما عنى به: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا النصارى، ولكن معنى الكلام لما كان مفهومًا عند المخاطبين به معناه، جُمع الفريقان في الخبر عنهما، فقيل: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ أي: قالت

(١) ينظر: التفسير الكبير للرازي (١/ ٥٥٩).

(٢) ينظر: تفسير المنار (١/ ٣٥٠)، وصفوة الآثار والمفاهيم (٢/ ٣٣٩).

(٣) ينظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص٥٦٩).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير(١/ ٦٧٤).

(٥) ينظر: الكشاف (١/ ٢٠٣)، وبدائع الفوائد (٤/ ٩٥٩)، وتفسير المنار (١/ ٣٥٠)، والتحرير والتنوير (١/ ٦٧٤)، وصفوة الآثار والمفاهيم (٢/ ٣٣٩).

اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًّا، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًّا»[(١)].

أشار الله تعالى إلى مقولتهم الصادرة منهم بقوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ «فالإخبار عنها بصيغة الجمع ؛ إما لأنها لما كانت أمنية كل واحد منهم صارت إلى أماني كثيرة، وإما إرادة أن كل أمانيهم كهذه ومعتادهم فيها»[(٢)].

بيّن الله سبحانه أن قولهم هذا ليس لهم به حجة في كتبهم المنزلة من عنده، وأنها مجرد أماني منشؤها الافتراء على الله، وإلا فالتوراة توجب الإيمان بعيسى والإنجيل، والإنجيل يوجب الإيمان بموسى والتوراة.

وإذا كان كذلك فمن أين لهم الحجة على احتكار كل فريق الجنة لنفسه دون غيره، ولذا قال سبحانه: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[(٣)].

قررَّ الله سبحانه وتعالى أنهم كاذبون بقوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ ومع ذلك لم يشأ أن يقرر الأمر هكذا من غير أن يطلب منهم البرهان على كلامهم، وهذه ذروة الرقي في الحوار[(٤)]؛ إذ تعلم يقينًا وقطعيًّا كذب وخطأ مخالفك ومع ذلك لا تقرر خطأه من غير دليل، وطالما هم المدعون فالدليل عليهم .

والمعنى الذي تقدَّم تقريره هو الذي لمحه الإمام الطبري فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا الكلام وإن كان ظاهره دعاء القائلين : ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ إلى إحضار حجة على دعواهم ما ادعوا من ذلك، فإنه بمعنى تكذيب

(١) جامع البيان (٢/ ٥٠٧).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٧٤) .

(٣) ينظر: صفوة الآثار والمفاهيم (٢/ ٣٣٩، ٣٤٠).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (١/ ٦٧٤) .

من الله لهم في دعواهم وقيلهم؛ لأنهم لم يكونوا قادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك أبداً»[(١)].

«علَّم القرآن أهله أن يطالبوا الناس بالحجة؛ لأنه أقامهم على سواء المحجة، وجدير بصاحب اليقين أن يطالب خصمه به ويدعوه إليه، وعلى هذا درج سلف هذه الأمة الصالح، قالوا بالدليل وطالبوا بالدليل ونهوا عن الأخذ بشيء من غير دليل»[(٢)].

ثم أبطل القرآن الكريم مدعاهم بطريق آخر، وهو إيراد قاعدة كلية رتبت دخول الجنة على الإيمان والعمل الصالح دون محاباة لأمة، أو لجنس، أو لطائفة فقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[(٣)].

فـ﴿ بَلَىٰ ﴾ كلمة تذكر في الجواب لإثبات نفي سابق[(٤)]، فهي مبطلة لقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ ﴾ أي بلى إنه يدخلها من لم يكن هودًا ولا نصارى ؛ لأن رحمة الله ليست خاصة بشعب دون شعب، وإنما هي مبذولة لكل من يطلبها ويعمل لها عملها[(٥)].

فالقرآن يقرر صفة الذي يدخل الجنة بغض النظر عن اسمه وجنسه ولونه، يقدم هذه الصفة لكل إنسان من بني البشر -يهوديًّا أو نصرانيًّا أو غيرهما- ليحققها في

(١) جامع البيان (٢/ ٥١٠).

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٥٠).

(٣) ينظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص٥٧٢). والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم (١/ ١٢٤).

(٤) ينظر: حروف المعاني للزجاجي(ص٦).

(٥) ينظر: تفسير المنار (١/ ٣٥٠)، والتحرير والتنوير (١/ ٦٧٤)، وصفوة الآثار والمفاهيم (٢/ ٣٣٩).

نفسه إن أراد دخول الجنة، وهي: أن من انقاد لله بوجهه وأحسن في عبادته وعمله؛ فله الأجر من الله، ولا خوف عليه فيما يستقبل ولا حزن فيما فاته [(١)].

المطلب الثاني: تضليل بعضهم بعضًا:

من جملة المخازي التي ذكرها الله في كتابه عن أهل الكتاب تضليل بعضهم بعضًا بسبب التعصب الممقوت [(٢)]، فقد ادعى كل فريق منهم أن صاحبه ليس على شيء، وأنه أحق برحمة الله منه [(٣)]، فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣].

«جاءت هذه الآية الكريمة معطوفة على قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١١١] لزيادة بيان أن المجازفة دأبهم، وأن رمي المخالف لهم بأنه ضال شنشنة [(٤)] قديمة فيهم، فهم يرمون المخالفين بالضلال لمجرد المخالفة، فقديمًا ما رمت اليهودُ النصارى بالضلال، ورمت النصارى اليهودَ بمثله، فلا تعجبوا من حكم كل فريق منهم بأن المسلمين لا يدخلون الجنة» [(٥)].

نفى كل فريق منهم الدين بتاتًا عن الفريق الآخر [(٦)] ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي ليسوا على شيء من الدين الحقيقي الذي يعتد به [(٧)].

---

(١) ينظر: الشخصية اليهودية من خلال القرآن (ص١٣٨)، والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم (١/ ١٢٤).

(٢) ينظر: الدرة في تفسير سورة البقرة (ص١٤٦).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٣١٩)، والمحرر الوجيز (١/ ١٨٣).

(٤) الشنشنة: الطبيعة والسجية، لسان العرب، مادة شنن (١٣/ ٢٤١).

(٥) التحرير والتنوير (١/ ٦٧٥).

(٦) ينظر: صفوة الآثار والمفاهيم (١/ ٣٤١).

(٧) ينظر: التحرير والتنوير (١/ ٦٧٦).

وإنما قالت اليهود ذلك؛ لأنهم يكفرون بعيسى، ولا يرون شريعته دينًا؛ وقالت النصارى ذلك؛ لأنهم يرون أن الدين الحق ما كانوا عليه، واليهود قد كفروا به[(١)].

والعجب من حالهم أنهم قالوا تلك المقالة ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾[(٢)].

فكل فريق منهم يتلوا كتابه المنزل عليه بواسطة نبيه.

فكتاب اليهود – التوراة – يبشر بنبي منهم وهو عيسى، وتذكر من العلامات ما ينطبق عليه، ولا تزال اليهود إلى اليوم تدعي أن المسيح المبشر به في التوراة لما يأت، وتنتظر ظهوره وإعادته الملك إلى شعب إسرائيل، فلم يؤمنوا به، فهم مخالفون لكتابهم.

وكتاب النصارى -الإنجيل- يقول بلسان المسيح: إنه جاء متممًا لناموس موسى، وليس ناقضًا له، وهم قد نقضوه.

فدينهم في الكذب واحد، إذ أن كلًّا منهم آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، فهم في الكفر سواء[(٣)].

فإذا كان الفريقان قالوا تلك المقالة وهم عالمون بما في كتبهم، تالون له، ففيه إيماء إلى جهلهم فيما تقابلوا من القول[(٤)]، وتنبيه لأمّة محمد ﷺ في أن من كان عالمًا بالقرآن، يكون واقفًا عنده، عاملًا بما فيه، قائلًا بما تضمنه، لا أن يخالف قوله ما هو شاهد على مخالفته منه، فيكون في ذلك كاليهود والنصارى[(٥)].

كما أن الآية تنبئ عن أن من أتى شيئًا من معاصي الله على علم منه بنهي الله عنها، فمصيبته في دينه أعظم من مصيبة من أتى ذلك جاهلًا به[(٦)].

شابه قوم اليهود والنصارى في هذا القول:﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾.

---

(١) ينظر: صفوة الآثار والمفاهيم (١/ ٣٤١)، وتفسير سورة البقرة (١/ ٢٨١).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (١/ ٦٧٦).

(٣) ينظر: صفوة الآثار والمفاهيم (١/ ٣٤١)، وتفسير المنار (١/ ٣٥٣).

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٨٦).

(٥) ينظر: البحر المحيط (١/ ٥٢٢)، وروح المعاني (١/ ٣٦١).

(٦) ينظر: جامع البيان (٢/ ٥١٨).

ولأهل التفسير في المراد بهم قولان:

أحدهما: أنهم مشركو العرب[١]؛ لأنهم لا كتاب لهم.

والثاني: أنهم أمم كانوا قبل اليهود والنصارى كقوم نوح وهود وصالح[٢].

حكى ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ القولين: ثم رجح أنها عامة تصلح للجميع، وليس ثمَّ دليل قاطع يعين واحدًا من هذه الأقوال، فالحمل على الجميع أولى[٣].

تشابه القول بالقول في الصدور عن مجرد التشهي والهوى والعصبية[٤]، وتعصَّب كل لملته الفاسدة التي جعلها جنسية يعتز بها، وزعم أنها هي المنجية لكل من وسم بها ورضي باسمها ولقبها، وأما غيرها فليس على شيء.

ولكن الحق فوق كل هذه المزاعم، فلا يتقيد بأسماء ولا ألقاب، وإنما هو إيمان خالص وعمل صالح لا تشوبه شائبة[٥].

«وسيردون إلى ربهم فيحكم بينهم بالقسط فيما كانوا يختلفون فيه؛ لأنه العليم بما عليه كل فريق من حق وباطل، ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦]»[٦].

المطلب الثالث: زعمهم قصر الهدى عليهم:

ادعت اليهود والنصارى أن الهداية بيدها والخير مقصور عليها[٧]، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

---

(١) قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهو قول الجمهور» المحرر الوجيز (١/ ١٨٣).

(٢) ينظر: جامع البيان (٢/ ٥١٦)، والمحرر الوجيز (١/ ١٨٣)، وزاد المسير (١/ ١٣٣).

(٣) جامع البيان (٢/ ٥١٦)، وينظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٨٧).

(٤) ينظر: روح المعاني (١/ ٣٦١).

(٥) ينظر: صفوة الآثار والمفاهيم (١/ ٣٤١).

(٦) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم (١/ ١٢٤).

(٧) ينظر: فتح القدير (١/ ٢٢٨).

و(أو) في الآية الكريمة للتنويع، أي قال اليهود لغيرهم لا دين إلا اليهودية ولا يتقبل الله سواها، فاتبعوها تهتدوا، وقال النصارى لغيرهم كونوا نصارى تهتدوا، إلا أن القرآن الكريم ساق هذا المعنى بقوله: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ لمعرفة السامع أن كل فريق منهم يكفر الآخر، ويعد ديانته باطلة، كما حكى القرآن عنهم ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [البقرة : ١٣٥] [(١)].

أمر الله نبيه ﷺ أن يجيبهم جوابًا شافيًا [(٢)]، بأبلغ حجة وأوجزها وأكملها[(٣)]، فأبطل كلامهم بحرف (بل) الذي يؤتى به في صدر الكلام لينفي ما تضمنته الجملة السابقة[(٤)]، ثم أتبعه بالانتساب إلى ملة إبراهيم الذي يتشرف الكل بالانتساب إليه، إليه، فقد كان خليل الرحمن مائلًا عن كل دين باطل، فلا يغتر المشركون بهذا فإنه ما كان من المشركين، وهو أولى بالاتباع مما دعوا إليه [(٥)].

ثم أرشد الله المؤمنين إلى جواب جامع وكلمة سواء، تفيد نبذ التعصب جانبًا، وتدعو إلى اتباع الوحي الإلهي الذي أرسل الله به الرسل مبشرين ومنذرين بدون تفرقة بين أحد منهم، وهو يتضمن دعوة أهل الكتاب إلى الطريق الحق: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦] [(٦)].

---

(١) ينظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص٥٥٦).

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن (ص٦٧).

(٣) ينظر: جامع البيان (٣/ ١٠٢).

(٤) ينظر: حروف المعاني (ص١٥، ١٤).

(٥) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم (١/ ١٥٤، ١٥٥).

(٦) ينظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص٥٥٨)، والشخصية اليهودية من خلال القرآن (ص ١٣٩).

«وبهذا الأصل العظيم، وحدة الأنبياء والمرسلين في دينهم ورسالتهم تنتفي الطائفية التي نشرها اليهود والنصارى بتعصبهم الجنسي الذي صبغوه بصبغة الدين، فلا يكون في الإسلام طائفية، ولا ينشأ من الإسلام طائفية أبدًا؛ لأن المسلمين يؤمنون بكل نبي ورسول، ويقدسون كل كتاب منزل ويؤمنون به، فلا يبقى لدعوتهم طائفية، وإنما الطائفية في الدين اليهودي المزعوم الذي لا يؤمن بغير موسى ويكفر بما وراءه، حتى عيسى المبشر به في التوراة، ومحمد ﷺ كذلك عندهم، والطائفية في دين النصارى الذين لا يؤمنون بغير عيسى ويكفرون بالتوراة التي نصَّ عيسى على أنه جاء متممًا لناموس موسى، ومن الطائفية ينبع كل شقاق ويتفاقم»(١).

وهذه العنصرية عند اليهود والنصارى في تعصبهم لطائفتهم جنسهم وتفريقهم بين الرسل في الإيمان هي التي ذكرها الله في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

حيث فَرّقوا بين الله ورسله في الإيمان، فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض، بمجرد التشهي والعادة، وما ألفوا عليه آباءهم، لا عن دليل قادهم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك بل بمجرد الهوى والعصبية، فاليهود -عليهم لعائن الله- آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ.

والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء، فقد كفر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (١/ ٤٠١).

التشهي تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيمانًا شرعيًّا، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية[(١)].

يقرر القرآن بحسم وجزم وتحديد أن الهدى هو في هذا الدين[(٢)] ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة : ١٣٧].

فإن اتبعه الذين قالوا: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ﴾ [البقرة : ١٣٥] فإيمانهم اهتداء، وليسوا قبل ذلك على هدى خلافًا لزعمهم أنهم عليه من قولهم: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ﴾ فدل مفهوم الشرط على أنهم ليسوا على هدى ما داموا غير مؤمنين بالإسلام[(٣)].

«هذه هي عقيدتنا وهذا منهجنا، فإن آمن السابقون إيمانًا مثل إيماننا فقد حققوا الخير والهدى لأنفسهم، وإن أبوا إلا الإعراض والمخالفة والمنازعة فلن يكونوا إلا منغمسين في العداوة والإيذاء وشق الصف، وعندئذ فإن الله سيكفي عباده المؤمنين ضررهم وأذاهم؛ إذ هو السميع لكلامهم العليم بأحوالنا وأحوالهم»[(٤)].

المطلب الرابع: تزكيتهم أنفسهم:

«تزكية النفس والغرور بالدين والجنس مما يبطئ عن العمل الصالح والمساعي المثمرة التي تكسب العز والسعادة في الدنيا وحسن المصير في الآخرة، ولا ضرر أعظم من الغرور وتزكية النفس بالأماني والدعاوى العريضة»[(٥)].

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٤٥).

(٢) ينظر: الشخصية اليهودية من خلال القرآن (ص ١٣٩).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١/ ٧٤٠).

(٤) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم (١/ ١٥٥).

(٥) صفوة الآثار والمفاهيم (٥/ ٤١٧).

ولذا وبّخ الله الذي يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى، ومن نحا نحوهم من كل من زكى نفسه بأمر ليس فيه [(١)] بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [النساء: ٤٩، ٥٠].

لم يبين سبحانه هنا كيفية تزكيتهم أنفسهم؛ ولكنه بين ذلك في مواضع أخر من كتابه، كقوله عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ﴾ [المائدة: ١٨]، وقوله : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة : ١١١] إلى غير ذلك من الآيات [(٢)].

زاد بعض أهل العلم على ما ذكره الله عنهم في الآيات المتقدمة في معنى تزكيتهم لأنفسهم قولهم: لا ذنوب لنا وما فعلناه نهارًا غفر لنا ليلًا، وما فعلناه ليلًا غفر لنا نهاراً، ونحن كالأطفال في عدم الذنوب [(٣)]، ولفظ التزكية يعم جميع تلك المعاني فيحمل عليها كما رجّح ذلك الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(٤)].

فتزكية اليهود والنصارى لأنفسهم وصفهم لها بالطهارة والتقوى، والاستطالة على الناس بذلك [(٥)].

أبطل الله مدعاهم بقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ فجاء بحرف (بل) الذي يؤتى به في صدر الكلام لينفي ما تضمنته الجملة السابقة [(٦)].

«فليست العبرة بتزكيتكم لأنفسكم بأنكم أبناء الله وأحباؤه، وأنكم لا تعذبون

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن (ص١٨٢).
(٢) ينظر: أضواء البيان (١/ ٣٩١، ٣٩٢).
(٣) ينظر: الوجيز للواحدي (ص٢٦٨)، ومعالم التنزيل (٢/ ٢٣٣)، والكشاف (١/ ٥٢٢).
(٤) ينظر: جامع البيان (٨/ ٤٥٥).
(٥) ينظر: زهرة التفاسير (٣/ ١٧١١).
(٦) ينظر: حروف المعاني (ص١٤، ١٥).

في النار، وأنكم ستكونون أهل الجنة دون غيركم؛ بل الله يزكي من يشاء من عباده من جميع الشعوب والأقوام بهدايتهم إلى العقائد الصحيحة، والآداب الكاملة، والأعمال الصالحة »[(١)].

«ليصف اليهود والنصارى أنفسهم بما شاءوا، وليمنوا أنفسهم الأماني بأنهم لا ذنوب لهم، أو أنها تمحى فور ارتكابها، فكل ذلك من مزاعمهم، والله وحده هو الذي يصف الأفعال المحمودة والأفعال المذمومة، ويعطي عليها الثواب أو العقاب ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]»[(٢)].

والله سبحانه لم يحرمهم ما هم به أحرياء[(٣)]، وأنّ تزكيته لغيرهم ليست لضرب من الميل؛ فهو منزه عن كبير الظلم وصغيره[(٤)]، فهو سبحانه لا يظلم أحدًا حقه، ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل الذي يكون في شق النواة[(٥)]، ولذا ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

فإذا كانت التزكية من الله فليلجأ العبد في طلبها إلى المتفضل بها ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

ولهذا كان من دعاء أشرف الخلق ﷺ «**اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**»[(٦)].

إن ما ارتكبه اليهود والنصارى متضمن لأمرين عظيمين موجبين للتعجب: ادعاؤهم الاتصاف بما هم متصفون بنقيضه، وافتراؤهم على الله سبحانه، فإن

(١) تفسير المنار (٥/ ١٢٣).

(٢) ينظر: زهرة التفاسير (٣/ ١٧١٢).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٥/ ٨٤).

(٤) ينظر: تفسير الراغب (٢/ ١٢٧١).

(٥) ينظر: لسان العرب، مادة فتل (١١/ ٥١٤).

(٦) أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار -باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل- (٤/ ٢٠٨٨)، ح (٢٧٢٢)] من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ادعاءهم الزكاء عنده تعالى متضمن لادعائهم قبول الله، وارتضائه إياهم، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، ولكون هذا أشنع من الأول جرمًا، وأعظم قبحًا؛ لما فيه من نسبته سبحانه وتعالى إلى ما يستحيل عليه بالكلية، من قبول الكفر، وارتضائه لعباده، ومغفرة كفر الكافر وسائر معاصيه وجه النظر الى كيفيته تشديدًا للتشنيع فقال: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾[1].

«وينبغي هنا أن نلتفت إلى أنفسنا نحن المسلمين، فإذا فسدت أعمالنا وأقوالنا، وتركنا الاحتكام إلى شرع الله في كل أمورنا، ثم تفاخرنا بأننا مسلمون، والإسلام بريء من الظلم والفساد في الأرض، إذا فعلنا ذلك نكون قد اتبعنا سنن اليهود والنصارى والعياذ بالله»[2].

المطلب الخامس: زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه:

من مقالات اليهود والنصارى أن كلًّا منهم ادعى دعوى باطلة، يزكون بها أنفسهم[3]، فاليهود يعلنون للناس أنهم شعب الله المختار، والنصارى يعلنون أنهم هداة هذا الوجود، وأنه لا سلامة إلا في دينهم على الوضع الذي وضعوه، وعلى الزعم الذي زعموه، وبذلك يعتبرون أنفسهم أبناء الله وأحباؤه[4]؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

ظاهر اللفظ أن جميع اليهود والنصارى قالوا عن جميعهم ذلك وليس كذلك، بل في الكلام لف وإيجاز، والمعنى: وقالت كل فرقة من اليهود والنصارى عن نفسها

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم (٢/ ١٨٨).
(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم (٢/ ١٣٥).
(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن (ص٢٢٧).
(٤) ينظر: زهرة التفاسير (٤/ ٢٠٩٩).

خاصة: نحن أبناء الله وأحباؤه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة: ١٣٥](١).

والبنوة هنا الرأفة والحنان في قول كثير من المفسرين(٢).

أما اليهود فإنهم قالوا: إن الله من حنته وعطفه علينا كالأب الشفيق، وأما النصارى فإنهم تأولوا قول عيسى: إذا صليتم فقولوا: يا أبانا الذي في السماء تقدس اسمه، وأراد أنه في بره ورحمته بعباده الصالحين كالأب الرحيم(٣).

وقيل: المراد البنوة الحقيقة: فقد نقل اليهود عن كتابهم أن الله قال لعبده إسرائيل: أنت ابني بكري، فحملوا هذا على غير تأويله، وحَرّفوه. وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم، وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، يعني: ربي وربكم. ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البنوة ما ادعوها في عيسى عليه السلام، وإنما أرادوا بذلك معزتهم لديه وحظْوتهم عنده، ولهذا قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾(٤).

وقيل: المراد البنوة بالاتباع(٥)، وهي البنوة التي زعمها اليهود لعزير إذا قالوا: عزير ابن الله، وهم أتباعه وشيعته، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله، وهو أتباعه، فهم أبناء الله بهذا الاتباع(٦).

(١) ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٦٥).

(٢) ينظر: الوجيز للواحدي(ص٣١٤)، والمحرر الوجيز (٢/ ٢٠٠)، والبحر المحيط (٣/ ٤٦٥)، وتيسير الكريم الرحمن (ص٢٢٧).

(٣) ينظر: الوجيز للواحدي(ص٣١٤).

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٣/ ٩٦).

(٥) ينظر: الكشاف (٢/ ٦٥٢).

(٦) ينظر: زهرة التفاسير (٤/ ٢٠٩٩).

وعلى الرغم من اختلاف المفسرين في المراد بالبنوة، إلا أنهم متفقون في أن المقصود من قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ هو ادعاؤهم أن لهم فضلًا ومزية عند الله تعالى على سائر الخلق[(١)].

وقد علَّم الله رسوله ﷺ أن يبطل قولهم بنقْضَيْن أولهما:

قوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ فلو كنتم أبناء الله وأحبّاءه لما عذّبكم بذنوبكم، وشأن المحبُّ أن لا يعذّب حبيبه، وشأن الأب أن لا يعذّب أبناءه، ولو كنتم أبناء الله لكنتم من جنس الأب لا تذنبون ولا تفعلون القبائح التي تستوجبون عليها العقاب، ولو كنتم أحباؤه لما عصيتموه[(٢)].

وإن واقعكم يا أهل الكتاب يناقض دعواكم، فقد عذبكم -سبحانه- في الدنيا بسبب ذنوبكم بالقتل والأسر والمسخ وتهييج العداوة والبغضاء بينكم إلى يوم القيامة.

أما في الآخرة فإن كتبكم التي بين أيديكم تشهد بأنكم ستعذبون في الآخرة على ما تقترفون من آثام في دنياكم.

وقد أقر اليهود بأن العذاب سيقع بهم -في زعمهم- أيامًا معدودات في الآخرة وحكى القرآن عنهم ذلك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤]، وأقر النصارى بأن الله -تعالى- يجزي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته[(٣)].

فهم على هذا لا يخلون من أحد وجهين؛ إما إن يقولوا هو يعذبنا، فيقال لهم: فلستم إذًا أبناءه ولا أحباءه، فإن الحبيب لا يعذب حبيبه، وأنتم تقرون بعذابه،

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٨٨)، وإرشاد العقل السليم (٣/ ٢١)، وروح المعاني (٦/ ١٠١).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٦/ ١٥٦).

(٣) ينظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص٥٨٠).

فذلك دليل على كذبكم، أو يقولوا: لا يعذبنا فيكذبوا ما في كتبهم، وما جاءت به رسلهم. ويبيحوا المعاصي وهم معترفون بعذاب العصاة منهم، ولهذا يلتزمون أحكام كتبهم [(١)].

ثم أتبعه جلَّ وعلا بالنقض الثاني، وبين لهم ما هو الحق من أمرهم فقال: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ فأبطل كلامهم بحرف (بل) الذي يؤتى به في صدر الكلام لينفي ما تضمنته الجملة السابقة [(٢)].

فأنتم من جملة من خلق الله تعالى، وهو عز وجل الحكم العدل، لا يحابي أحدًا، وإنما يغفر لمن يعلم أنه مستحق للمغفرة، ويعذب من يعلم أنه مستحق للعذاب، فهو يجزيكم بأعمالكم، كما يجزي سائر البشر أمثالكم، فارجعوا عن غروركم بأنفسكم وسلفكم وكتبكم، فإنما العبرة بالإيمان الصحيح والأعمال الصالحات، لا بمن سلف من الآباء والأمهات [(٣)].

يدعوا القرآن اليهود والنصارى الأنانيين إلى أن ينظروا لأنفسهم نظرة إنسانية وليست عنصرية جنسية، فهم بشر مثل باقي البشر، وتنطبق عليهم -كما تنطبق على باقي الأمم الأخرى- أحكام الله وسننه الثابتة، وتترتب عليهم في الدنيا ويوم القيامة آثار ونتائج أعمالهم التي عملوها، فيعذبهم إن ظلوا أو كفروا، ويرحمهم ويدخلهم الجنة إن آمنوا وأصلحوا وأحسنوا [(٤)].

ختمت الآية الكريمة ردها على أهل الكتاب ببيان أن الله تعالى هو المالك لما في السماوات والأرض، وما بينهما، وهو صاحب التصرف المطلق في ملكه بمقتضى علمه وحكمته، وجميع البشر له، لا نسب بينه وبين أحد منهم، ثم يصيرون إليه يوم

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٢) ينظر: حروف المعاني (ص١٤، ١٥).

(٣) ينظر: تفسير المنار (٦/ ٢٦٠).

(٤) ينظر: الشخصية اليهودية من خلال القرآن (ص١٣٥).

القيامة فيحاسبهم على أعمالهم، وبذلك تكون الآية قد فنّدت مزاعم اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأرست قاعدة مهمة لجميع البشر هي: أن مقياس التفاضل عنده سبحانه هو التقوى والعمل الصالح (١).

المطلب السادس: زعم اليهود أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة:

ارتكب اليهود من الجرائم ما ارتكبوا، وكانوا يستهينون بها، زعمًا منهم أن الله لن يعذبهم؛ لأنهم أبناؤه وأحباؤه، وحتى إذا أغضبهم وعذَّبهم فلن يكون عذابًا طويلًا ومستمرًا دائمًا، وإنما هي أيام معدودة أو معدودات ويدخلون الجنة بعدها.

وقد سجل القرآن الكريم هذا الزعم اليهودي في موضعين (٢):

الأول: في سورة البقرة وفي سياق تحريف اليهود لدين الله وكتابه وشرعه وكتابته بأيديهم ونسبته إلى الله فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة : ٨٠].

افتخر اليهود وتفاضلوا بأن النار لن تمس جنسهم وعروقهم وقبائلهم إلا أيامًا معدودة (٣)، وإنما قيل: ﴿مَّعۡدُودَةٗ﴾ وإن لم يكن مبينًا عددها في التنزيل؛ لأن الله جل ثناؤه أخبر عنهم بذلك وهم عارفون عدد الأيام، التي يوقتونها لكثهم في النار، فلذلك ترك ذكر تسمية عدد تلك الأيام، وسماها ﴿مَّعۡدُودَةٗ﴾ (٤).

جاء في بعض الآثار عن السلف الكرام أنهم قالوا: سندخل النار أربعين يومًا بعدد أيام عبادة العجل، أو أنهم يعذبون سبعة أيام، عدد أيام الدنيا، سبعة آلاف لكل ألف يوم، ثم ينقطع العذاب (٥).

(١) ينظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص٥٨٠).
(٢) ينظر: الشخصية اليهودية من خلال القرآن (ص١٣٦).
(٣) ينظر: الإسلام والعنصرية (ص٢٩، ٣٠).
(٤) ينظر: جامع البيان (٢/ ٢٧٤).
(٥) ينظر: جامع البيان (٢/ ٢٧٤)، والنكت والعيون (١/ ١٥٢، ١٥٣).

وقد ورد في صحاح الأحاديث أنهم صرّحوا بذلك الزعم، فعندما سألهم رسول الله ﷺ من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها، **فقال النبي ﷺ : «اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبدًا»**[(١)].

وهذا القول منهم يدل على أمرين[(٢)]:

أولهما: بيان أنهم صنف مختار والعذاب والحساب على غيرهم، فهم الذين سيحاسِبون ويعاقِبون، أما هم فوق الحساب، وفوق العقاب.

وثانيهما: الاستهانة بأوامر الله تعالى، وما يكون وراء ذلك من حساب أو عقاب.

أمر الله نبيه ﷺ أن يرد عليهم برد مفحم دامغ فقال له: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهل أنتم جاءكم عهد من الله بذلك فاتخذتموه أمانًا لكم من الخلود في النار أو طول المكث فيها، هل عهد الله إليكم بنجاتكم منها بأمر خاص بوحي خاص ومنحة خاصة خالصة؟ أو هل عندكم عهد عام من عهود الله الشرعية بإنجائكم من النار، وإدخالكم الجنة باتباعكم شريعته، وطاعة أوامره، واجتناب نواهيه، وحمل رسالته والوقوف عند حدوده.

لابد من هذا أو هذا، فإما أن يكون هذا القول صادرًا منكم عن ثقة بوعد الله الذي قمتم بطاعته وسارعتم إلى مرضاته، أو أن يكون عندكم عهد من الله بالعفو الخاص عن مساوئكم التي لا تحصى، والعفو عن تقصيركم في اطراح وحيه، فإن كان عندكم أحد العهدين اللذين ترتكزون عليهما في دعواكم فإن الله لن يخلف عهده، وإن لم يكن عندكم شيء من ذلك فأنتم مفترون على الله؛ لأن كل من يقول على الله بغير علم ولا برهان فإنه مفتر على الله سبحانه وتعالى، فما قولكم هذا إلا

(١) أخرجه البخاري، أبواب الجزية والموادعة -باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم- (٣ / ١٠٥٦)، ح (٢٩٩٨)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) ينظر: زهرة التفاسير (١/ ٢٨٥، ٢٨٦).

استخفاف بجناب الله، ومحاولة لتبديل كلماته من عقوبة المسيء المخالف بالنار، وتنعيم المطيع المحسن للأعمال بالجنة[(١)].

ثم ثنَّى سبحانه بذكر هذا الجواب القاطع والحقيقة الفاصلة الشاملة التي ليس فيها محاباة، وإنما فيها تقرير الجزاء على جنس العمل، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر[(٢)] فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١، ٨٢].

إن الأمر ليس كما يظن أولئك اليهود، فهناك سنن كونية تحكم الجميع ومنها سنة العقاب والثواب الأخروي؛ ومؤداها أن من أشرك بالله، واقترف ذنوبًا جمةً، فمات عليها قبل الإنابة والتوبة فأولئك أصحاب النار هم فيها مخلدون أبدًا[(٣)]، وبهذا تكون القضية عليهم لا لهم؛ لأنهم نقضوا العهد وغيروا وبدّلوا فاستحقوا الخلود في النار.

أما الصنف الآخر هم المؤمنون المصدقون بما جاء من عند الله وعملوا بالطاعات فهؤلاء هم أهل الجنة الذين لا يتحولون عنها ولا يزولون[(٤)].

أما الموضع **الثاني** الذي سجله القرآن الكريم على هؤلاء اليهود فهو في سورة آل عمران.

وقد ورد في سياق رفضهم التحاكم إلى كتاب الله، وإعراضهم عن كل مَن يدعوهم إلى ذلك، وتوليهم عن كل دعوة إليه، واختيارهم أن يبقوا على ما هم عليه حتى لو كان باطلًا، ورضاهم بما يفعلونه من الذنوب والآثام، والسبب في هذا

---

(١) ينظر: صفوة الآثار والمفاهيم (٢/ ٢٢٦).

(٢) ينظر: صفوة الآثار والمفاهيم (٢/ ٢٢٨، ٢٧٢).

(٣) ينظر: جامع البيان (٢/ ٢٧٥).

(٤) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم (١/ ١١١، ١١٢).

اعتقادهم أن الله لن يعذبهم إلا أيامًا معدودات فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣، ٢٤][(١)].

وما فعله اليهود من رفضهم التحاكم إلى كتاب الله، وإعراضهم عن كل مَن يدعوهم إلى ذلك، وتوليهم عن كل دعوة إليه، بسبب زعمهم أنّهم في أمان من العذاب إلاّ أيامًا قليلة، فانعدَم اكتراثهم باتّباع الحق؛ لأنّ اعتقادهم النجاة من عذاب الله على كل حالٍ جَرّأهم على ارتكاب مثل هذا الإعراض، وهذا الاعتقاد مع بطلانه مؤذن أيضًا بسفالة همّتهم الدينية، فكانوا لا ينافسون في تزكية الأنفس[(٢)].

أوقعهم هذا الغرور الذي ركز في نفوسهم من أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم شعب الله المختار، وأنهم لا يحاسبون إلا بمقدار ما يحاسب الأب ولده المدلل، وحبيبه المختار، إذا رأى مخالفة أو عنادًا فإنه لا يجافيه ولا يعاقبه، ولكن يقربه ويعاتبه[(٣)]؛ في الضلال الدائم ؛ لأنّ المخالفة إذا لم تكن عن غرور فالإقلاع عنها مرجوٌ، أما المغرور فلا يترقّب منه إقلاع[(٤)].

«إن الأوهام التي ترد على النفس وتستولي على القلب تدفع إلى الضلال، وكذلك شأن هؤلاء اليهود: تعصبوا تعصبًا شديدًا لدينهم، وأبغضوا غيرهم بغضًا شديدًا؛ حتى إنه لا يتصور أن يهوديًّا أحب غير يهودي لغير مأرب من مآرب الدنيا، أو غاية من غاياتها ؛ وحتى لقد حسبوا أن الديانة جنس، واندفعوا تحت تأثير هذا التعصب إلى اعتقاد أوهام، ثم تأييد هذه الأوهام بأكاذيب افتروها، ثم

(١) ينظر: الشخصية اليهودية من خلال القرآن (ص١٣٧).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢/ ٢١١، ٢١٢).
(٣) ينظر: زهرة التفاسير (٢/ ١١٦٣).
(٤) ينظر: التحرير والتنوير (٢/ ٢١١).

تكاثفت تلك الأكاذيب جيلًا بعد جيل، حتى أصابت غرة وغفلة في عقولهم، فاعتقدوا ما لا يعتقد؛ اعتقدوا أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، واعتقدوا أن الجزاء بالجنس لا بالعمل، وهذا ما يفيده قوله: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾»[1].

توعدهم الله -تعالى- على هذا الافتراء بقوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[آل عمران: ٢٥].

أي: فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم لجزاء يوم لا ريب في مجيئه، وهو يوم الدين ووفيت كل نفس ما كسبت بأن رأت ما عملته محضرًا موفىً لا نقص فيه، فكان منشأ الجزاء ومناط السعادة أو الشقاء، دون الانتماء إلى دين كذا ومذهب كذا أو الانتساب إلى فلان وفلان من النبيين والصالحين، ألا إنهم يرون يومئذ أن الجزاء يكون بشيء من داخل نفوسهم لا من شيء خارج عنها، يكون بها أحدثته أعمالهم فيها من الصفات الحسنة أو القبيحة ومقدرة بقدر ذلك، ويرون أن الناس سواء في هذا الجزاء لا امتياز فيه بين الشعوب وإن سمي بعضها بشعب الله، ولا بين الأفراد وإن لقبوا أنفسهم بأبناء الله، بل يرون هنالك العدل الأكمل[2].

«وبذلك تكون الآيات الكريمات قد أبطلت مدعاهم، وكذَّبت مزاعمهم، وردت على غرورهم بما يخرس ألسنتهم، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيَّ عن بينة وإن الله لسميع عليم»[3].

المطلب السابع: زعم اليهود أن لهم الدار الآخرة خالصة من دون الناس، وأنهم أولياء الله:

إن الشعور بالاستعلاء والاستكبار على جميع الخلق داء عضال ومزمن عند الأمة اليهودية، ذكره القرآن الكريم عنهم في آيات كثيرة وتزخر به نصوص كتبهم

(١) زهرة التفاسير (٢/ ١١٦٤).

(٢) ينظر: تفسير المنار (٣/ ٢٢١).

(٣) بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص٥٤٥).

المقدسة لديهم، ومنها ما ورد في توراتهم المحرفة: أنتم أولاد للرب إلهكم...لأنك شعب مقدس للرب إلهك، وقد اختارك الرب لكي تكون له شعبًا خاصًا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض[(١)].

ومن تلك الدعاوى التي حكاها القرآن الكريم عنهم: زعمهم أن لهم الدار الآخرة خالصة من دون الناس، وأنهم أولياء الله من دون الناس.

وقد ذكر الله عنهم ذلك في موضعين من كتابه:

الأول: في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٩٤].

كان السبب في غروهم واستعلائهم أنهم بسبب توالي نعم الله عليهم، حسبوا أنهم لهم المنزلة العليا عند الله، فادعوا الدعاوى الباطلة التي حكاها الله عنهم في كتابه، كقوله تعالى: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة : ٨٠]، وقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة : ١١١]، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة : ١٨] [(٢)].

تصدّى الله سبحانه لدحضهم وكشف مخازيهم وأباطيلهم بهذا التحدي القاطع الدامغ، آمرًا نبيه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٩٤][(٣)].

فإن صحت دعواكم وصدق قولكم: إنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وأنكم شعب الله المختار؛ فلن تمسكم النار إلا أيامًا معدودات لا تزيد على أيام عبادة العجل ولا تتجاوز عابديه، فتمنوا الموت الذي يوصلكم إلى ذلك النعيم

(١) ينظر: سفر التثنية (١٤/ ١) نقلًا عن موجز تاريخ اليهود(ص٢٧٣).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٥٧).

(٣) ينظر: صفوة الآثار والمفاهيم (٢/ ٢٧٤).

الخالص الدائم، لا منازع لكم فيه ولا مزاحم، وإن لم تتمنوا الموت فما أنتم بصادقين؛ إذ لا يعقل أن يرغب الإنسان عن السعادة ويختار الشقاء عليها[(١)].

وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم، إلا أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، وإما تمني الموت الذي يوصلهم إلى الدار التي هي خالصة لهم، فامتنعوا من ذلك[(٢)].

أحجم اليهود عن تمني ذلك فرقًا من الله لقبح أعمالهم ومعرفتهم بكفرهم في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: ١٨]، وحرصهم على الدنيا تحقيقًا لكذبهم، وأيضًا لو تمنوا الموت لماتوا، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقامهم من النار**»[(٣)].

لقد قال الله سبحانه وتعالى حاكمًا على حالهم بأنهم في ذات أنفسهم وفي مداركهم يعلمون مآثمهم، ويعلمون كذبهم، ولذلك ليست الجنة لهم، ولذا لا يتمنون الموت؛ فقال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥] نفى الله سبحانه وتعالى ذلك التمني عنهم نفيًا مؤبدًا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا﴾وبذكر السبب ألا وهو ما قدمت أيديهم، ومعنى ذلك أنهم كاذبون في ادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم كاذبون في قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] وإنهم يعلمون ما قدموا من كفر، وما قدَّمه أسلافهم، ولم ينكروه عليهم من اتخاذ العجل، ومن كفر بالنعم التي أنعم الله عليهم وكفروا بها[(٤)].

---

(١) ينظر: تفسير المنار (١/ ٣٢١).

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن (ص٥٩).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٩٩)، ح (٢٢٢٥)] من حديث عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩/ ٦٧)، ح (٣٢٩٦)، وشعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند (٤/ ٩٩)، ح (٢٢٢٥)].

(٤) ينظر: زهرة التفاسير (١/ ٣٢٢، ٣٢٣).

«فهذه الآية أوضحت لنا مراد الله من فتح باب التحدي لهم بتمني الموت، إنه للتعجيز الذي سببه عرفانهم بسوء فعالهم، وشدة وحشتهم من الله، فالذي أعجزهم عن النطق بالتمني، ليس مجرد النطق، وإنما هو خوفهم مما يستقبلهم من العذاب بما عملته أيديهم، فإن مجرد النطق لا يعجز أحدًا، بل كلما تفوهوا بتلك الدعاوى يتفوهون بتمني الموت تمنيًا كاذبًا، لولا ما يعرفونه من قبيح أعمالهم، وشنيع كفرهم، فإنهم لن ينطقوا بهذا أبدًا؛ خشية أن يستجيب الله دعاؤهم فيها، فيخسروا الدنيا التي هي غاية مطلبهم، ويخسروا الآخرة التي ليس لهم فيها نصيب، بما قدمت أيديهم، فيا له من سلاح أعطاه الله لعباده المسلمين المؤمنين، يقمعون به دعاوى المبطلين الذين يتمنون على الله، ولذا ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ليوضح لنا سوء طريقهم وأنهم ظالمون في إصدار الحكم لأنفسهم على الله، بأن لهم الدار الآخرة لهم وحدهم خالصة من الناس أنهم ظالمون »[(١)].

ونظير هذه الآية ما ذكره الله عنهم في سورة الجمعة وهو **الموضع الثاني** الذي ذكره الله عنهم في كتابه فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٦].

«كان اليهود ولا يزالون أبعد الناس عن طلب الآخرة وأشدهم تكالبًا على حطام الدنيا، وهم قد يصلحون لأي عمل إلا اقتياد الجماهير إلى الله، ومما يحزن أن المسلمين المعاصرين قد سرت إليهم العدوى من أهل الكتاب فنسوا الوحي ورفعوا في أوطانهم شعارات أخرى عرقية ودنيوية مبتوتة العلاقة بدين الله»[(٢)].

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (٢/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم (ص٤٢٩، ٤٣٠).

«ففي الآيتين الكريمتين إشارة إلى أنانية اليهود حيث إنهم يريدون احتكار ولاية الله كجنس مفضل ومختار على سائر الأجناس، وهذا لا يمكن أن يصح أو أن يتم؛ لأن الله هو رب العالمين، وليس رب اليهود وحدهم»[(١)].

خاطب الله نبيه ﷺ أن يقول لهم على سبيل التحدي والتعجيز والتبكيت: إن كان الأمر كما زعمتم أنكم أبناء الله وأحباؤه، وأنكم أولياء الله - تعالى - المقربون إليه من دون سائر خلقه، فاذكروا أمام الناس بألسنتكم لفظًا، يدل على أنكم تحبون الموت وترغبون فيه، كي تظفروا بعد الموت بالمحبة الكاملة من الله، ولكي تنتقلوا من شقاء الدنيا ومتاعبها إلى النعيم الخالص بعد موتكم[(٢)].

تحداهم الله أن يتمنوا الموت لأنهم إن كانوا أولياء الله وأحباءه من دون الناس، فلن يخيفهم الموت إذًا ؛ لأن ولي الله حقًا يتمنى لقاءه، والإسراع إلى ما أعد له من النعيم المقيم، وإنما تحداهم الله بذلك إظهارًا لكذبهم، فاليهود أبعد الناس عن تمني الموت وأكثرهم حرصًا على الحياة، ولقد علَّل القرآن عدم تمنيهم الموت لأنهم يعرفون أنفسهم أنهم عاصون لله، مقترفون للذنوب التي يستحقون عليها عذاب جهنم[(٣)].

«وتمني الموت أمر خفيف، فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا التحدي الذي جعله الله دليلًا على صدقهم إن تمنوه، وكذبهم إن لم يتمنوه، ولما لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك، علم أنهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده»[(٤)].

---

(١) روح القرآن الكريم تفسير جزء قد سمع (ص٩٦).

(٢) ينظر: الوسيط سيد طنطاوي (١/ ٤٢٠١).

(٣) ينظر: روح القرآن الكريم تفسير جزء قد سمع (ص٩٦).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص٨٦٢).

المطلب الثامن: قول اليهود ليس علينا في الأميين سبيل:

اليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله وأحباؤه، وشعبه المختار، ومن قديم الزمن وهم يقسمون العالم إلى قسمين متقابلين: قسم إسرائيل وهم صفوة الخلق وأصحاب الحظوة عند الله، وقسم آخر يسمونه الأمميين أو الأميين (الجوييم) أي غير اليهود، ومعنى (جوييم) عندهم وثنيون وكفرة وبهائم وأنجاس، وقد أدى هذا الغرور والتعالي باليهود إلى إهدار كل حق لغيرهم عليهم، وأن من حق اليهود أن يسرقوا من ليس يهوديًّا، وأن يغشوه ويكذبوا عليه، ويقتلوه إذا أمنوا اكتشاف جرائمهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الرذيلة التي تمكنت من اليهود بقوله [(١)]: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

أخبر الله ﷻ نبيه ﷺ عن حال اليهود في الوفاء والخيانة في الأموال[(٢)]، وأن منهم من إن تأمنه على الكثير والنفيس من الأموال فإنه يؤد إليك عند طلبه كاملًا غير منقوص، ومنهم فريق آخر إن تأمنه على القليل الحقير فإنه يجحده ويستحله لنفسه! وقد جعل القنطار والدينار مَثَلين للكثرة والقلة، والمقصود ما يفيده الفحوى من أداء الأمانة فيما هو دون القنطار، ووقوع الخيانة فيما هو فوق الدينار[(٣)].

«فالفريق الأول في السماك الأعزل، والثاني في الحضيض الأوهد، وصوَّر الله سبحانه الفرق بينهما ذلك التصوير الحكيم البين الواضح بأن الأول لو ائتمن على قنطار من ذهب لأداه، والثاني إن ائتمن على دينار لا يؤده إلا بالملازمة الدائمة،

(١) ينظر: الوسيط سيد طنطاوي (١/ ١٧٢٧).
(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن (ص١٣٥).
(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٣/ ٢٨٦).

والتتبع والإلحاف الشديد، وعبر الله سبحانه وتعالى عن هذه الملازمة بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ أي: إلا إذا استمررت مطالبًا له مصممًا على أن يؤدي مشرفًا عليه في غدوه ورواحه»[(١)].

وقد يقول قائل: ما وجه إخبار الله ﷻ نبيه بانقسام اليهود إلى أمين وخائن، مع العلم أن عامة الناس كذلك، منهم المؤدي أمانته، ومنهم الخائن لها؟

أجاب عن ذلك الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «إنما أراد جل وعز بإخباره المؤمنين خبرَهم -على ما بينه في كتابه بهذه الآيات- تحذيرَهم أن يأتمنوهم على أموالهم، وتخويفهم الاغترارَ بهم، لاستحلال كثير منهم أموالَ المؤمنين»[(٢)].

ثم أخبر الله سبحانه عن السبب الذي جعلهم يبررون خيانتهم وجحودهم لحق غيرهم فقال[(٣)]: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ أي: ليس علينا في شأن من ليسوا من أهل الكتاب - ولم يكونوا على ديننا - عتاب وذم[(٤)].

والمراد بالأميين في الآية الكريمة هم العرب في قول جمهور المفسرين[(٥)].

أنْبَأ هذا عن خلق عجيب فيهم، وهو استخفافهم بحقوق المخالفين لهم في الدين، واستباحةُ ظلمهم[(٦)]؛ لأن أنانيتهم جعلتهم يحرفون كتبهم حسب ما تهوى أنفسهم، فقد كانت التوراة مثلًا تحرم الربا تحريمًا مطلقًا وتقول: «لا تأخذ ربًا من أخيك إذا أقرضته»، فحرف اليهود هذا النص؛ إذ زادوا كلمة الإسرائيلي، فأصبح النص هكذا: «لا تأخذ ربًا من أخيك الإسرائيلي إذا أقرضته»، وبذلك أصبحوا

(١) زهرة التفاسير (٣/ ١٢٨٠).
(٢) جامع البيان (٦/ ٥١٩).
(٣) ينظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص٥٩١).
(٤) أنوار التنزيل (١/ ٥٤). وينظر: الكشاف (١/ ٤٠٢).
(٥) ينظر: جامع البيان (٦/ ٥٢١)، والنكت والعيون (١/ ٤٠٣)، وتفسير القرآن العظيم (٢/ ٦٠).
(٦) ينظر: التحرير والتنوير (٣/ ٢٨٨).

يحرمون الربا عند تعاملهم مع أنفسهم، ويحلونه عند تعاملهم مع غيرهم ؛ لأنهم لا يشعرون بالإخوة الإنسانية العامة [١].

ورد في التلمود: «مسموح غش الأمي، وأخذ ماله بواسطة الربا الفاحش لكن إذا بعت أو اشتريت من أخيك اليهودي شيئًا فلا تخدعه ولا تغشه»[٢].

وفي التلمود: «إن الله لا يغفر ذنبًا ليهودي يرد للأمي ماله المفقود، وغير جائز رد الأشياء المفقودة من الأجانب»[٣].

وفي التلمود: «اقتل الصالح من غير الإسرائيليين، ويحرم على اليهودي أن ينجي أحدًا من باقي الأمم من هلاك، أو يخرجه من حفرة يقع فيها، لأنه بذلك يكون حفظ حياة أحد الوثنيين»[٤].

تأمل مقولة اليهود هاهنا ثم قارنها بماء جاء عن حبر الأمة وترجمان القرآن عندما سأله أصحابه إنا نصيب في الغزْو من أموال أهل الذمة الدجاجةَ والشاة، فقال: فتقولون ماذا ؟ قال نقول: ليس علينا بذلك بأس! قال: هذا كما قال أهل الكتاب : ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾، إنهم إذا أدّوا الجزية لم تحلّ لكم أموالهم إلا بطِيب أنفسهم [٥].

فهذه أخلاق أصحاب محمد ﷺ ساروا على مبدأ الأمانة مع كل إنسان، وعدم أخذ أموال الغير بغير وجه مشروع [٦].

---

(١) ينظر: العنصرية الصهيونية في التوراة(ص٥٤)، وبنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص٥٩١).

(٢) ينظر: الأسفار المقدسة عند اليهود وأثرها في انحرافهم (ص١٣١).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) جامع البيان (٦/ ٥٢٤).

(٦) ينظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص٥٩٢).

إن المبادئ الخلقية الفاضلة لا تعرف جنسًا ولا لونًا ولا ثقافة؛ ولذا قال تعالى رادًا عليهم مبينًا كذبهم: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ «في هذه الجملة السامية رد عليهم بأن ما قالوه من أنه ليس علينا في الأميين سبيل كلام لا أصل له في شرع سماوي فهو ليس دينًا، وإذا كانوا قد قالوه على الله تعالى فقد كذبوا على الله تعالى، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك في قضية عامة تدل على أن من شأنهم أن يقولوا الكذب على الله تعالى، وهم يعلمون أنه كذب، فقد كذبوا فادَّعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وكذبوا فادَّعوا أن إبراهيم كان يهوديًّا، وكذبوا فادّعوا أنه لا نبي إلا من بني إسرائيل، فكان الكذب على الله تعالى شأنًا من شؤنهم، ولذا عبَّر بالمضارع، أي أن شأنهم أن يقولوا الكذب على الله، قالوه في الماضي، ويقولونه في الحاضر، وسيقولونه في المستقبل؛ وذلك شأن الذين يحتكرون لأنفسهم حق التكلم في الدين، ويحسبون غيرهم ليس من حقهم أن يتكلموا فيه»(١).

ثم أكَّد الله كذبهم بجملة أخرى فيها الرد الملزم لهم فقال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

فـ﴿بَلَىٰ﴾ كلمة تذكر في الجواب لإثبات نفي سابق(٢)، فهي مبطلة لقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ والمعنى: بلى عليهم في الأمّيين سبيل(٣).

«إن ورود الجواب بهذه العبارة أفادنا قاعدة عامة من قواعد الدين: وهي أن الوفاء بالعهود، واتقاء الإخلاف وسائر المعاصي والخطايا، هو الذي يقرب العبد من ربه ويجعله أهلًا لمحبته لا كونه من شعب كذا، ومن هذه القاعدة يعلم خطأ اليهود في زعمهم أنه ليس عليهم في الأميين سبيل، وفيه التعريض بأن أصحاب هذا الرأي ليسوا من أهل التقوى التي هي الركن الركين لكل دين قويم»(٤).

---

(١) زهرة التفاسير (٣/ ١٢٨٢).

(٢) ينظر: حروف المعاني للزجاجي(ص٦).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٢/ ٥٢٦).

(٤) ينظر: تفسير المنار (١/ ٣٢١).

المبحث الثاني

إبطال القرآن الكريم لمظاهر العنصرية عند أهل الكتاب

سلك القرآن الكريم مسلكًا فريدًا في نقض مظاهر العنصرية وإبطالها عند أهل الكتاب؛ سواء أكان ذلك من خلال الأساليب التي استخدمها، أم بالقاعدة التي قررها كمناط للكرامة في الدنيا ودخول الجنة في الآخرة؛ وسأبين ذلك من خلال المطلبين الآتيين :

المطلب الأول: الأساليب والأدوات التي ذكرها القرآن الكريم لإبطال العنصرية عند أهل الكتاب.

ذكر الله في كتابه الكريم حرفين من حروف المعاني هما: (بلى) و(بل) في الخطاب الموجه لأهل الكتاب لنقض ما زعموه وما ادعوه من العنصرية، وذلك في أكثر من آية:

فحرف بلى يذكر في الجواب لإثبات نفي سابق[١].

وحرف (بل) يؤتى به في صدر الكلام لينفي ما تضمنته الجملة السابقة[٢].

فمن الآيات التي ورد فيها حرف (بلى) ما يلي:

١- عندما زعموا أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودًا أو نصارى أتبعه تعالى بقوله: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ١١٢] ؛ فهي مبطلة لقولهم : ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ﴾ أي بلى إنه يدخلها من لم يكن هودًا ولا نصارى[٣].

---

(١) ينظر: حروف المعاني للزجاجي(ص٦).

(٢) المصدر السابق (ص١٤، ١٥).

(٣) ينظر: تفسير المنار (١/ ٣٥٠)، والتحرير والتنوير (١/ ٦٧٤)، وصفوة الآثار والمفاهيم (٢/ ٣٣٩).

٢- وعندما زعم اليهود أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة أتبعه تعالى بقوله: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨١].

فقوله : ﴿بَلَىٰ﴾ إبطال لقولهم : لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة(١).

٣- وعندما قالوا ليس علينا في الأميين سبيل أتبعه تعالى بقوله: ﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ٧٦] فهي مبطلة لقولهم : ﴿ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ ﴾والمعنى : بلى عليهم في الأمّيين سبيل(٢).

ومن الآيات التي ورد فيها حرف (بل) ما يلي:

١- عندما قصروا الهداية عليهم كما ذكر الله عنهم في قوله: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾[البقرة:١٣٥] أتبعه بقوله لنبيه ﷺ:﴿قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: لا نريد ما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع ﴿مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ﴾(٣).

٢- وعندما زكّى اليهود والنصارى أنفسهم كما ذكر الله عنهم في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾[النساء: ٤٩]، أبطل الله مدعاهم بقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾.

فقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ إبطال لمعتقَدهم بإثبات ضدّه، وهو أنّ التزكية شهادة من الله، ولا ينفع أحدًا أن يزكّي نفسه . وفي تصدير الجملة بـ (بل) تصريح بإبطال تزكيتهم. وأنّ الذين زكّوا أنفسهم لا حظّ لهم في تزكية الله، وأنّهم ليسوا ممّن يشاء الله تزكيته، ولو لم يذكر (بل) فقيل والله يزكّي من يشاء لكان لهم مطمع أن يكونوا ممّن زكّاه الله تعالى(٤).

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير(١/ ٥٨٠).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٢/ ٥٢٦).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٤٨).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير(٥/ ٨٤).

٣- وعندما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه كما ذكر الله عنهم في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] أتبعه تعالى بقوله لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة:١٨]. أي: ليس الأمر كذلك، من زعمكم أنكم أبناء الله وأحباؤه بل أنتم بشر من بعض من خلق[(١)].

المطلب الثاني: القاعدة التي قررها القرآن الكريم كمناط للكرامة في الدنيا، ودخول الجنة في الآخرة.

بيَّن الله سبحانه في أكثر من آية في الرد على مزاعم أهل الكتاب بأنهم الجنس الأفضل من غيرهم؛ بأن مناط الرفعة والمنزلة عند الله هو تقوى الله والعمل الصالح ومن ذلك ما يلي:

١- عندما زعموا أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودًا أو نصارى أتبعه تعالى بقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة : ١١٢].

٢- فالقرآن يقرر صفة الذي يدخل الجنة بغض النظر عن اسمه وجنسه ولونه، وهي: أن من انقاد لله بوجهه وأحسن في عبادته وعمله؛ فله الأجر من الله، ولا خوف عليه فيما يستقبل ولا حزن فيما فاته[(٢)].

٣- وعندما زعم اليهود أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة أتبعه تعالى بقوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١، ٨٢].

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٣/ ٤٦٦)، وروح المعاني (٦/ ١٠٢).

(٢) ينظر: الشخصية اليهودية من خلال القرآن(ص١٣٨)، والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم (١/ ١٢٤).

فهناك سنن كونية تحكم الجميع ومنها سنة العقاب والثواب الأخروي، ومؤداها أن من أشرك بالله، واقترف ذنوبًا جمةً، فمات عليها قبل الإنابة والتوبة فأولئك أصحاب النار هم فيها مخلدون أبدًا[(١)]، أما الصنف الآخر هم المؤمنون المصدقون بما جاء من عند الله وعملوا بالطاعات فهؤلاء هم أهل الجنة الذين لا يتحولون عنها ولا يزولون[(٢)].

٤- وعندما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه أتبعه تعالى بقوله لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ١٨].

فالله ﷻ الحكم العدل، لا يحابي أحدًا، وإنما يغفر لمن يعلم أنه مستحق للمغفرة، ويعذب من يعلم أنه مستحق للعذاب، فهو يجزيكم بأعمالكم، كما يجزي سائر البشر أمثالكم، فإنما العبرة بالإيمان الصحيح والأعمال الصالحات، لا بمن سلف من الآباء والأمهات[(٣)].

٥- وعندما قالوا ليس علينا في الأميين سبيل أتبعه تعالى بقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

والتقوى في هذا الموضع، ترجع إلى اتقاء المعاصي التي بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الخلق، فمن كان كذلك فإنه من المتقين الذين يحبهم الله تعالى، سواء كانوا من الأميين أو غيرهم، فمن قال ليس علينا في الأميين سبيل، فلم يوف بعهده ولم يتق الله، فلم يكن ممن يحبه الله، بل ممن يبغضه الله[(٤)].

٦- ومن الآيات الكريمات التي ذكرت أن ميزان التفاضل عند الله سبحانه وتعالى

---

(١) ينظر: جامع البيان (٢/ ٢٧٥).

(٢) ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم (١/ ١١١، ١١٢).

(٣) ينظر: تفسير المنار (٦/ ٢٦٠).

(٤) ينظر: تيسير الكريم الرحمن(ص١٣٥).

التقوى: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣].

فلمَّا كان قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ﴾ يدل على استواء الناس في الأصل؛ لأن أباهم واحد وأمهم واحدة، وكان في ذلك أكبر زاجر عن التفاخر بالأنساب وتطاول بعض الناس على بعض، بين تعالى أنه جعلهم شعوباً وقبائل لأجل أن يتعارفوا: أي يعرف بعضهم بعضًا، ويتميز بعضهم عن بعض، لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض ويتطاول عليه، وذلك يدل على أن كون بعضهم أفضل من بعض وأكرم منه إنما يكون بسبب آخر غير الأنساب، وقد بين الله ذلك هنا بقوله: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ فاتضح من هذا أن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى القبائل.

وهذه الآية القرآنية، تدل على أن دين الإسلام سماوي صحيح؛ لا نظر فيه إلى الألوان ولا إلى العناصر، ولا إلى الجهات، وإنما المعتبر فيه تقوى الله جل وعلا وطاعته، فأكرم الناس وأفضلهم أتقاهم لله، ولا كرم ولا فضل لغير المتقي، ولو كان رفيع النسب[(١)].

وفي معنى الآية الكريمة المتقدمة قوله تعالى[(٢)]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

«فهذا النص من الله سبحانه على أن منشأ بني الإنسان من نفس واحدة يوجب عليهم ترك المفاخرة فيما بينهم، واستعلاء بعضهم على بعض بالأنساب والعلوم والأوطان وغير ذلك من أنواع التعالي الكاذب»[(٣)].

(١) ينظر: أضواء البيان (٧/ ٦٧٢، ٦٧٣).
(٢) ينظر: صفوة الآثار والمفاهيم (٥/ ٩)، وزهرة التفاسير (٣/ ١٥٧٤).
(٣) صفوة الآثار والمفاهيم (٥/ ٩).

وتأمل فقه الإمام البخاري[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه لما عقد كتاب المناقب في صحيحه بدأه فقال: « باب: قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات : ١٣]، وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١] وما ينهى عنه من دعوى الجاهلية[(٢)]».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «يشير إلى ما تضمنته هذه الآية من أن المناقب عند الله إنما هي بالتقوى، بأن يعمل بطاعته ويكف عن معصيته»[(٣)].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة فقال: «**يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة[(٤)] الجاهلية، يا أيها الناس إنما الناس رجلان: بَرٌّ تقي كريم على ربه، وفاجر شقي هين على ربه**، ثم تلا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات : ١٣]»[(٥)].

وعن أبي نضرة -المنذر بن مالك بن قُطَعة- قال: حدثني من سمع: خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: «**يا أيها الناس: ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلَّغتُ؟** قالوا : بلَّغ رسول الله ﷺ»[(٦)].

---

(١) ينظر: الأحاديث النبوية في ذم العنصرية الجاهلية (ص٢٤، ٢٥).

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٢٨٥).

(٣) فتح الباري (٦/ ٥٢٧).

(٤) عُبِّيَّة الجاهلية: يعني الكبر-وتضم عينها وتكسر- النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة عبب (٣/ ٣٦٩).

(٥) أخرجه حبان في صحيحه (٩/ ١٣٧)، ح (٣٨٢٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٣٠٢)، ح (٢٨٠٣)، وشعيب الأرناؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان (٩/ ١٣٧)،ح (٣٨٢٨).

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨/ ٤٧٤)، ح (٢٣٤٨٩).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٥٨٦): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح». =

فإذا كان الرب واحدًا، والأب للجميع واحدًا، لم يبق لدعوى لفضل بغير تقوى الله ﷻ أي اعتبار[(١)].

وعن ابن عباس ﷺ قال: «لا أرى أحدًا يعمل بهذه الآية؟ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ﴾ حتى بلغ ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [الحجرات : ١٣] فيقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك! فليس أحدٌ أكرم من أحدٍ إلا بتقوى الله»[(٢)].

=وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ١٩٩)، ح (٢٧٠٠) : «رجاله كلهم ثقات رجال مسلم غير من سمع خطبته ﷺ، فإنه لم يُسمَّ و ذلك مما لا يضر، لأنه صحابي، والصحابة كلهم عدول كما هو مقرر في علم مصطلح الحديث».

وقال شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند (٣٨/ ٤٧٤)، ح (٢٣٤٨٩)]: «إسناده صحيح».

(١) ينظر: الأحاديث النبوية في ذم العنصرية الجاهلية (ص٢١).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص٣٤٣)، برقم (٨٩٨).

وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص٣٤٣) «صحيح».

الخاتـمة

أحمد الله تعالى الذي مَنَّ علي بإتمام هذا البحث، وفيما يلي أوجز ما توصلتُ إليه من نتائج:

١- العنصرية: اتخاذ عناصر ناشئة من تصور بشري أساسًا للتفاضل بين الجماعات البشرية، ولا دخل لأحدٍ في هذه العناصر مثل: الجنس أو اللون أو القومية أو غير ذلك من هذه العناصر.

٢- ما ادعاه إبليس-عليه لعنة الله- من أفضلية عنصره على عنصر آدم عليه السلام أول أشكال العنصرية التي عرفتها البشرية.

٣- عرض القرآن الكريم لعدد من مظاهر العنصرية عند أهل الكتاب ومنها: زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، وتضليل بعضهم بعضًا، وزعمهم قصر الهدى عليهم، وتزكيتهم أنفسهم، وزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وزعم اليهود أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، وأن لهم الدار الآخرة خالصة من دون الناس، وأنهم أولياء الله، وقولهم ليس علينا في الأميين سبيل.

٤- سلك القرآن الكريم مسلكًا فريدًا في نقض العنصرية وإبطالها عند أهل الكتاب، وذلك من خلال الأدوات التي استخدمها كحرف (بلى) الذي يذكر في الجواب لإثبات نفي سابق، وحرف (بل) الذي يؤتى به في صدر الكلام لينفي ما تضمنته الجملة السابقة، وكذلك من خلال القاعدة التي قررها القرآن الكريم كمناط للكرامة في الدنيا، ودخول الجنة في الآخرة وهي تقوى الله والعمل الصالح.

والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

١-**الأحاديث النبوية في ذم العنصرية الجاهلية**، عبدالسلام بن برجس العبد الكريم، ط١، مكتبة الرشد، الرياض: ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٢-**الأدب المفرد**، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط٣، دار البشائر، بيروت: ١٤٠٩هـ.

٣-**إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي أبي السعود، ط٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٤-**الأسفار المقدسة عند اليهود وأثرها في انحرافهم: عرض ونقد**، د. محمود عبدالرحمن قدح، مجلة الجامعة الإسلامية، ع (١١١)، المدينة المنورة: ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٥-**الإسلام والعنصرية وتفاضل القبائل وذوي الألوان في ميزان الإسلام**، عبدالعزيز بن عبدالرحمن قارة، ط٢، دار البشير، جدة: ١٤١٦هـ/ ١٤٢٥هـ.

٦-**أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، ط١، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة: ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م

٧-**أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، عبد الله بن عمر البيضاوي، إعداد وتقديم: محمد عبد لرحمن المرعشلي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٨-**البحر المحيط**، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٩-**بدائع الفوائد**، محمد بن أبي بكر أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا وآخرين، ط١، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

١٠- **بنو إسرائيل في القرآن والسنة**، محمد سيد طنطاوي، ط٢، دار الشروق، القاهرة: ١٤٢٠هـ.

١١- **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر بن عاشور، دار سُحنون للنشر والتوزيع، تونس: بدون.

١٢- **تفسير الراغب الأصفهاني من سورة آل عمران وحتى نهاية الآية (١١٢) من سورة النساء**، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة د. عادل بن علي الشَّدي، ط١، مدار الوطن، الرياض: ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٣- **تفسير القرآن العظيم**، إسماعيل بن عمرو بن كثير القرشي، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ط٢، دار طيبة، الرياض: ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٤- **تفسير القرآن الكريم (سورة البقرة)**، محمد بن صالح العثيمين، ط١، دار ابن الجوزي، الدمام: ١٤٢٣هـ .

١٥- **التفسير الكبير**، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٦- **التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم**، إعداد: نخبة من العلماء بإشراف د. مصطفى مسلم، ط١، جامعة الشارقة الإمارات: ١٤٣١هـ.

١٧- **تفسير القرآن الحكيم المشتهر بتفسير المنار**، محمد رشيد رضا، ط٢، دار المنار، القاهرة: ١٣٣٦هـ/ ١٩٤٧م.

١٨- **التفسير الموضوعي: التأصيل والتمثيل**، أ.د. زيد عمر عبدالله العيص، ط١، مكتبة الرشد، الرياض: ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٩- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٢٠- **جامع البيان جامع البيان عن تأويل آي القرآن** محمد بن جرير الطبري، حققه وعلق عليه: محمود محمد شاكر وخرج أحاديثه: أحمد محمد شاكر، ط٢، مكتبة ابن تيمية، القاهرة: بدون.

٢١- **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان**، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٢٢- **حروف المعاني**، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق: د. علي توفيق الحمد، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٩٨٤م.

٢٣- **الدرة في تفسير سورة البقرة**، ميادة بنت كامل الماضي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٢٧هـ.

٢٤- **الرائد معجم لغوي عصري**، جبران مسعود، ط٧، دار العلم للملايين، بيروت: ١٩٩٢م.

٢٥- **روح القرآن الكريم تفسير جزء قد سمع**، عفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت: ١٩٩٦م.

٢٦- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، محمود بن عبد الله الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت : بدون .

٢٧- **زاد المسير في علم التفسير**، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت: ١٤٠٤هـ .

٢٨- **زهرة التفاسير**، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، مصر.

٢٩- **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، محمد ناصر الدين، ط١، مكتبة المعارف، الرياض: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .

٣٠- **سنن أبي داود**، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، بيروت، بدون .

٣١- **الشخصية اليهودية من خلال القرآن تاريخ وسمات ومصير**، د. صلاح عبدالفتاح الخالدي، ط١، دار القلم، دمشق: ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٣٢- **صحيح الأدب المفرد**، محمد ناصر الدين الألباني، ط١، مكتبة الصديق: ١٤٢١هـ.

٣٣- **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٣٤- **صحيح البخاري**: محمد بن إسماعيل البخاري تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط٣، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت : ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣٥- **صحيح سنن أبي داود**، محمد بن ناصر الدين الألباني، ط١، دار غراس، الكويت، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٣٦- **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٧- **صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم**، عبد الرحمن بن محمد الدوسري، ط١، دار المغني، الرياض: ١٤٢٥هـ.

٣٨- **العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير**، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، تحقيق: د. خالد بن عثمان السبت، ط٢، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة: ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م .

٣٩- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، ط٢، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

٤٠- **العقيدة والفطرة**، محمد بن فتح الله بدران، مطبعة زهران، القاهرة.

٤١- **العنصرية الصهيونية في التوراة**، أحمد السقاف، ط١، شركة الربيعان للنشر والتوزيع، الكويت: ١٩٨٤م.

٤٢- **العنصرية عند الأمم وموقف الإسلام منها**، عابد بن سليمان بن سلمان المشوخي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، الرياض: ١٤٠٥هـ .

٤٣- **العين**، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، ط٢، مؤسسة دار الهجرة، بدون.

٤٤- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: بدون.

٤٥- **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط١، دار صادر، بيروت: بدون.

٤٦- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، علي بن أبي بكر الهيثمي، بتحرير الحافظين الجليلين: العراقي، وابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

٤٧- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

٤٨- **محيط المحيط**، بطرس البستاني، مكتبة لبنان، بيروت: ١٩٧٧م.

٤٩- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٥٠- **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، أحمد بن محمد المقرئ الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.

٥١- **معالم التنزيل**، الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، ط٤، دار طيبة، الرياض: ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٥٢- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، لمحمد فؤاد عبد الباقي، ط١، دار الكتب المصرية، القاهرة: ١٣٦٤هـ.

٥٣- **المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم**، صبحي عبد الرؤف عصر، دار الفضيلة، مصر.

٥٤- **المعجم الوسيط**، إبراهيم مصطفى وآخرين، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة: ١٤٢٥هـ.

٥٥- **مفتاح دار السعادة مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، محمد بن أبي بكر أيوب ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٦- **المفردات في غريب القرآن**، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، ضبط: هيثم طعيمي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٥٧- **موجز تاريخ اليهود والرد على مزاعمهم الباطلة**، د. محمود عبدالرحمن قدح، مجلة الجامعة الإسلامية، ع (١٠٧)، المدينة المنورة : ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٥٨- **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم**، محمد الغزالي، ط٢، دار الشروق: القاهرة: ١٩٩٢م.

٥٩- **النهاية في غريب الحديث والأثر**، المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت: ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٦٠- **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط١، دار القلم، الدار الشامية، دمشق- بيروت: ١٤١٥هـ .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص	٢٠٧
المقدمة	٢٠٨
التمهيد	٢١٢
أولًا: تعريف العنصرية في اللغة والاصطلاح	٢١٢
ثانيًا: المراد بأهل الكتاب	٢١٣
ثالثًا: نشأة العنصرية وأول قائل بها وأول قائل بها كما بَيَّنَ ذلك القرآن الكريم	٢١٤
المبحث الأول: مظاهر العنصرية عند أهل الكتاب في القرآن الكريم	
المطلب الأول: زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى	٢١٨
المطلب الثاني: تضليل بعضهم بعضًا	٢٢٢
المطلب الثالث: زعمهم قصر الهدى عليهم	٢٢٤
المطلب الرابع: تزكيتهم أنفسهم	٢٢٧
المطلب الخامس: زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه	٢٣٠
المطلب السادس: زعم اليهود أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة	٢٣٤
المطلب السابع: زعم اليهود أن لهم الدار الآخرة خالصة من دون الناس، وأنهم أولياء الله	٢٣٨
المطلب الثامن: قول اليهود ليس علينا في الأميين سبيل	٢٤٣
المبحث الثاني: إبطال القرآن الكريم لمظاهر العنصرية عند أهل الكتاب	
المطلب الأول: الأساليب التي استخدمها والأدوات التي ذكرها لإبطال العنصرية عند أهل الكتاب	٢٤٧
المطلب الثاني: القاعدة التي قررها القرآن الكريم كمناط للكرامة في الدنيا، ودخول الجنة في الآخرة هي تقوى الله والعمل الصالح	٢٤٩
الخاتمة	٢٥٤
فهرس المصادر والمراجع	٢٥٥
فهرس الموضوعات	٢٦٠